"تذكرة الحفّاظ"
للذهبي
(٦٧٣هـ/١٢٧٤م-٧٤٨هـ/١٣٤٨م)

أبو الفداء سامي التوني*

"**الحافظ**" في اصطلاح المحدثين هو من توسع في الحديث وفنونه بحيث يكون ما يعرفه من الأحاديث وعللها أكثر مما يجهل، وقد حدده بعض أهل العلم بحفظ ١٠٠,٠٠٠ حديث رواية ودراية حفظًا وفهمًا.

وكتاب "**تذكرة الحفاظ**" لشمس الدين الذهبي هو أشهر وأهم كتاب ألف في تراجم الحفاظ، وأكبر الظن أن الباعث على تأليفه هو باعث الحديث ليعرف المسلمون من يصحّ الأخذ عنه.

و"**تذكرة الحفاظ**" تتناول "**الحافظ**" من المحدثين دون من سواهم ممن برزوا في الحفظ في العلوم الأخرى، وقد رتب الذهبي كتابه على "**الطبقات**" فجعله في إحدى وعشرين طبقة، فبدأ بالصحابة - فهم أولى الطبقات -، وانتهى به إلى عصره، وكان آخر من ترجم له هو شيخه ورفيقه الحافظ المزّيّ (٧٤٢هـ/١٣٤٢م)، فبلغ مجموع تراجم الكتاب (١١٧٦) ترجمة، يضاف إلى ذلك من ذكرهم في ذيول كثير من تراجم كتابه ممن مات في نفس سنة وفاة صاحب الترجمة من غير الحفاظ لاسيما في الطبقات المتوسطة والأخيرة.

---

* تخرج في كلية دار العلوم عام ١٩٨٣م. باحث متفرغ للتحقيق العلمي لكتب التراث، يعمل حاليًا لإنجاز مشروع "دائرة معارف الأمة".

و لم يقصد الذهبي استيعاب جميع الحفاظ في كتابه، وقد اعتذر عن ذلك في غير موضع من كتابه.

وقد احتوت كل ترجمة - غالبًا على اسم الحافظ وكنيته ونسبه، والرمز لمن روى له من أصحاب الكتب الستة، ثم بيان أهم شيوخه، وأهم أصحابه، وبيان تاريخ مولده ووفاته، وسياق بعض الأخبار عن الحافظ وبعض أقوال العلماء فيه، مما يكشف عن مبلغ علمه وعدالته، وقد يورد بذيل بعض التراجم حديثًا رواه ذلك الحافظ يرويه الذهبي بإسناده إليه، كما قد يورد أسماء بعض من كان في طبقته ممن مات في نفس سنة وفاته.

وقد نقف مشدوهين لمسلك الذهبي في تراجمه حين نراه يسهب في تراجم بعض الحفاظ في حين يترجم لمن هو أولى منه وأشهر في صفحة أو بضعة سطور أحيانًا، وقد يزايلنا العجب حين ندرك أنه لم ينفرد بهذه الخاصية فهذا شائع في كتب التراجم عند سلفنا من العلماء، الذين كانت تحكمهم ظروف التأليف وأوقات استحضار المعلومة، بالإضافة إلى كونه استفاض في بعضها بموسوعتيه "**تاريخ الإسلام**" و"**سير أعلام النبلاء**"، كما اكتفى بالإيجاز في بعض التراجم لأنه أفرد لها مؤلفات مفردة.

وقد احتلت "**تذكرة الحفاظ**" أهمية كبيرة في التاريخ العلمي عند المسلمين، وبنى عليها الكثيرون تصانيف أخر طلبًا للكمال لهذا الكتاب المهم، كأبي المحاسن الحسيني (٧٦٥هـ/١٣٦٤م)، وتقي الدين بن فهد (٨٧١هـ/١٤٦٧م)، وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ/١٥٠٦م)، وغيرهم.

* طبع الكتاب:

وقد طبعت "**تذكرة الحفاظ**" بدائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٤٧٤هـ/١٩٥٥م بتحقيق العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، في أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين من القطع المتوسط (١٥٠٩ صفحة)، وألحقت به فهارس للأعلام المترجمين والمؤرخة وفاتهم.

وألحق به مجلد ثالث (حوالي ٦٠٠ صفحة) من القطع المتوسط حوى ذيول الحسيني، وابن فهد والسيوطي، كما ضم كتابًا رابعًا هو "**التنبيه والإيقاظ لما**

في ذيول تذكرة الحفاظ" لأحمد رافع الحسيني الطهطاوي (١٦٦ صفحة)، وهو ملاحظات وتعليقات على الذيول الثلاثة.

وقد حقق المجلد الثالث محمد زاهد الكوثري فبث فيه أشياء كثيرة دعته إليها عصبية مذمومة بلغت به حد التهجم على الأئمة والحط من قدرهم وعلى القارئ الاحتراس من ذلك.

وقد أعادت نشر الكتاب عدة دور نشر بطرق التصوير.

وقد صورت **"تذكرة الحفاظ"** مقاييس الثقافة في العالم الإسلامي في كل فترة من الفترات التي تناولتها، واتجاهات العلماء الدراسية واهتماماتهم العلمية في العلوم المختلفة، وطرق التدريس والإملاء والمناظرة والمذاكرة، والحلقات العلمية، وأماكن الدراسة في المساجد والجامع والبيوت والربط، والمدارس المعنية بتدريس مذهب أو مذهبين أو المذاهب الأربعة، في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

كما حفظ لنا الحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه عددًا هائلاً من أسماء الكتب ووصفها مع تزويد الدارس بالمعلومات المعلقة بها، مما يمكن أن يشكل ببليوجرافيا ضخمة.

والكتاب يفتقر إلى جهد علمي إضافي يكمل ما بذل في تحقيقه لترجمة المذكورين في ثنايا الكتاب من شخصيات مع ضبط أسمائهم، وتخريج ما به من روايات، ومناقشة ما به من قضايا علمية كثيرة، هذا بالإضافة إلى الفهارس الفنية الدقيقة التي تأخذ بيد الباحث إلى ما حواه من كنوز لا تحصى.